القسم الثاني

مؤشرات الحقيقة...

حول تخلف العقل العربي

الفصل الأول

لماذا مع صحوة العرب

تتخلف اللغة والثقافة والأدب

عاش العرب تاريخهم الطويل، ومنذ فجر الحياة وأولى الحضارات، تتعاقب عليهم الصحوات والغفوات. فهم كلما ناموا انتبهوا.. وكلما غفلوا تذكروا.. وكلما تذكروا كان لتذكرهم صحوة بيانية تؤلف بينهم، ونهضة تعبيرية تحكي شباب لغتهم، وتجدد أصالة أمتهم، وهم يصلون بهذا البيان بين القديم والجديد، ويعرضون الماضي في صورة الحاضر، رافعين بين أيديهم، وبأنغام لغتهم، هذه الأهداف الحضارية الإنسانية التي يستبقون إليها فوق كل عقبات المستقبل..

هكذا عرفت الأمة العربية مرحلة هذا الشروق التعبيري، والصحو البياني، قبيل أعظم وأكرم عهودها التاريخية بظهور وانتصار الدعوة إلى الإسلام. لقد عرفت ذلك في بدائع أشعارها وخطابتها، وروائع أمثالها وحكمتها، مما كان بدلالته البيانية بشائر وأشواق التغير قبيل فجر الشروق للدين الحق، كما كان برهانًا وجدانيًا وعقليًا على استواء وكمال اللغة العربية المبينة، التي نزل بها وحي القرآن الكريم، وأضاءت بها كلمات وأسوة الرسول، وأشرقت بها شمس الإسلام وغاياته على الأرض بغير أفول..

لقد كان هذا الشروق التعبيري بالشعر والأدب – في ألسنة العرب قبيل الإسلام – عذبًا وأخلاقيًا ومبينًا، بقدر ما عبر به الشعراء والخطباء عن الشباب الدائم لهذه الأمة العربية في لسانها الحي، وعن أصالة فضائلها الدينية في كيانها التاريخي، هذه الفضائل التي كانت تجتمع وتحتشد بها لتتذاكرها في مواسم الحج حول «بيت الله»، بقدر ما كانت تعبر في حكمتها وأشعارها – باللفظ والمعنى والإيقاع – عن تفكرها الدائب في خلق السموات والأرض، وعن وعيها بهذا التفكر لهذا الاتساق الباهر والدائم في الواقع المشرق، والمتحرك، من حولها، بغير تفاوت أو فطور، مما

كانت تجد فيه برهانها الحي، والعلمي، واليقيني، على الله الواحد الأحد، وعلى الخالق المدبر الحكيم..

بهذا الشروق التعبيري، والاستواء البياني قبيل الإسلام، حول حقيقة الاتساق في الخلق، والبرهان اليقيني على الله، والتسابق الفطري على مكارم الأخلاق – تهيأ لقريش، ولجميع العرب حول مكة، أن يؤمنوا بعد محال قليلة بدعوة النبي الأمين، وبما نزل إليه من القرآن العربي المبين، وأن يدخلوا بذلك – إيمانًا وعملًا وجهادًا – في دين الله أفواجًا، ليكونوا كما امتحنهم الله واجتباهم: ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾.. حاملين بهدى القرآن وأسوة الرسول، وبلاغ العربية الفصحى، أمانة الدعوة إلى الله في أنفسهم، وبين أجيالهم، وإلى الأمم والشعوب المحيطة بهم، عبر كل مكان وزمان..

المنطلق لكل صحوة:

ومن ثم فقد كانت هذه الصحوة العظمى بشروق شمس الإسلام في تاريخ العرب والبشر هي المنطلق، والأسوة، لكل صحوة جديدة في مراحل حياة هذه الأمة العربية، وهي تجتاز بمصادرها، وأسوتها، وتطبيقاتها، كل الشدائد والغفوات والعقبات.. ناهضة إلى أهداف أصالتها ورسالتها وعقيدتها مع تنفس كل صبح، وفي مشرق كل أمل، وفي مواجهة كل ابتلاء، لتجاهد عن أرضها ودينها، وعن قرآنها وشريعتها، وعن أسوة رسولها وأخلاقها، وعن لغتها وتاريخها، واثقة من النصر في سبيل الله، مهما كلفها النصر من الجهد والجهاد والصبر..

واليوم.. لا يشك أحد في أن العرب – على الرغم من تفرق صفوفهم واختلاف كلمتهم – يخوضون من أجل تحقيق الذات، وجمع الكلمة، عباب متغيرات عالمية، ملتهبة الأجواء، متسارعة الأحداث، متناقضة الأطماع والخطط. وكانت بداية الضربة المزلزلة لكيانهم، والقاضية

بإفاقتهم، هي هذه الضربة الاستعمارية المباغتة – التي اتفق عليها أكثر الأوربيين غربًا وشرقًا – عندما فرضوا على الأمة العربية آثار ومخاطر وصراعات هذا الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لنقطة مركزية مقدسة داخل بلادهم هي فلسطين، وبعلامة مميزة لتهديد عقيدة العرب والمسلمين جميعًا بتهويد القدس، وبتهديد بيت الله وحرمة الآمن في مكة..

لقد أفاق العرب وهم يجرجرون أغلال تخلفهم وتفرقهم على صدمة هذا التواطؤ والإذلال، ولم يعد أكثرهم نائمين – كما كانوا قبل – على أنفسهم وحسراتهم، بل تيقظوا حتى جذور شعر رؤوسهم، وفتحوا أعينهم حتى آخرها على ما يجري حولهم من مخاطر الإبادة التي تستهدفهم، في حين أفرزت شعوبهم – ولا تزال تقدم – أكثر من قيادة فعالة، وحققت في الاتجاه الصحيح أكثر من ثورة ودعوة، وقطعت بهذه الثورات والدعوات الهادفة أكثر من خطوة..

ولكن هذه الظاهرة:

ولكن.. مع هذه الصحوة المصيرية النامية في حياة وكفاح العرب المعاصرين.. الصحوة التي لا تزال شمسها المتقدة تتصاعد إلى كبد السماء، تبدو هذه الظاهرة الغريبة والشاذة عن كل صحوات العرب، وهي ظاهرة صمت الأدب العربي بكل ألسنته عن التبشير بهذه الصحوة، وعن الإشراق الوجداني والعقلي بكل حوافزها وركائزها وأهدافها..

نعم.. في هذه الصحوة الكبيرة والشاملة للعرب يصمت الأدب على غير عادته، ويسقط فارس الشعر منهوكًا عن جواده، في حين ترهف الأجيال الجديدة أسماعها – جيلًا بعد جيل – وتبسط أشواقها، في انتظار الموجات الدافئة بالحياة والذات لهذا الأدب العربي العصري الحي، والمبين، ولو على مستوى ما ظهر منه في ألسنة الأدباء والشعراء تعزيزًا لثورة عرابي

على الخديو الأجنبي وعلى بقية الأجانب والإنجليز.. ولكن هذا الأدب المنشود في صحوة الأصالة العربية لا يزال بفعل الكثير من السحرة والمضللين لائذًا بالصمت، أو منطويًا في غفوة الضحى، أو متسربًا في شقوق الغربة، أو منكس الرأس خجلًا أمام «الشعر الحديث!».. شعر هلوسات الممسوسين، ورطانات المغتربين..!

لقد خلا التعبير الحي المنتظر، في ذروة صحوة الأمة العربية، وفي غير القليل من كلمات بعض قادتها وعلمائها – من نضارة شباب اللغة، ومن عذوبة إيقاعها، ومن حقائق أصالتها، وكوامن قدراتها، حتى لقد بلغ الأمر بتلاحق التمزق في وحدة الكيان الحي لهذه اللغة المبينة، التي تتحصن من العجمة ومن الضياع بكتاب الله الحافظ لها – أنها أخذت تتردى يومًا بعد آخر في هذه الهجنة التي دهمتها بالمعاني الإلحادية الدخيلة، واللهجات العامية الطفيلية، لتصبح لغة القرآن – كما أراد لها أعداؤها، وكما نكص عنها حماتها مسخًا صوتيًا يتآكل ويحتضر في أكثر الأفواه والأقلام، وكأنها بكل ما أكرهت عليه من أوزار الهجنة، وسقطات العجمة، ومقاتل الأصالة «جارية العصر» التي دفعت بها فاقة أهلها، وافتقاد المرشد والعاصم والغيور، لكي يبتذل المتاجرون بالعامية الفصحى، أو بالفصحى العامية، محاسن أصواتها، وكنوز أصالتها، وهم يهدرون حصانتها، ويهددون مستقبلها، وشرف رسالتها، على مسرح الضائعين، وقصص المغتربين، وأشعار المرضى المنفصمين والذاهلين..!!

فكيف.. بدموع وشكايات وضياعات هذه اللغة المستباحة في السوق العدوانية المنصوبة لاسترقاقها وإذلالها.. كيف يتيسر للعرب أن يعززوا صحوتهم.. وبأي لغة غير هذه اللغة المبينة يمكنهم أن يوقظوا التنبه في أجيالهم إلى ركائز هذه الصحوة باتجاه حقائق الأصالة في الإيمان والعلم،

وفي الإحسان والعدل، وفي التراحم والحب، وفي العمران الإنساني على الأخلاق والطهر.. من أجل أن يستوعبوا العصر، ويتجاوزوا الأخطار، ويحققوا التقدم..؟!

هذه الظاهرة ودلالتها:

والآن.. ماذا وراء هذه الظاهرة من صمت الشعر والأدب، في ذروة صحوة ونهضة العرب؟

نعم.. إنه من الحق أن نسأل.. ومن الواجب الديني والقومي أن نحسن الفهم والجواب.. لنتعرف على حقيقة هذه العوامل وراء صمت الأدب الرفيع، والشعر المجلجل، في عصر المحنة بالغزو الفكري الشرقي والغربي، والغزو الصهيوني، وتوجه كل هذه الغزوات – برغم تناقض أطماعهم – إلى استلاب إرادة العرب، وانتهاب أرضهم، ومواردهم، والمواقع العسكرية والحصينة لبلادهم، وذلك للحيلولة بينهم وبين أية جهود واحتمالات لتحقق صحوة مقوماتهم، وقيام وحدتهم، بما قد يغير مرة أخرى من تاريخ البشر، باتجاه العمران الإنساني، والسلام في إشعاعه وشموله الديني، مما يوقف من عدوان الجبارين، وما يقوم عليه وحده أمن وسلام المستضعفين..

هل هذا الصمت أولًا مستمد من اقتناع العرب بأنه – في هذا العصر – لم تعد بهم حاجة إلى تنشيط وإحياء هذه اللغة المبينة التي كانت ولا تزال – حتى بين المختلفين منهم – مصدر الأمل الكبير في تضامنهم ووحدتهم؟!

هل هذا الصمت ثانيًا – في ألسنة الشعر والأدب – هو مجرد نزوة محاكاة للمجتمع الأوربي المعاصر، الذي فقد في موجات السرعة المتزايدة، وسلطان الآلة المتجبرة، وفتنة عالم الأزرار السحري الذي شغل

به، حاجته إلى ما كان له من الأدب الرفيع، والشعر الجذاب، مكتفيًا بهذه الملخصات من فنون «التهدئة» الرخيصة، التي تردى إليها مع مؤثرات أمراضه النفسية والعصبية، وهو يجلس إلى شاشات التليفزيون، أو مسارح الاستعراض المثير لرقصات البالية، أو كتب الجنس.. أو مع أفكار ملخصة أيضًا، وصغيرة جدًا، عن الأدب والشعر، وعن الرقص والجنس، وعن المتاع الشاذ والعهر، في حبوب للهلوسة.. والجنون!؟

أم أن هذا الصمت للأدب والشعر عند العرب يمكن أن يقع ثالثًا باختيار العرب وإرادتهم، وهم يشهدون أمام أعينهم أن غزاة أرضهم المقدسة في فلسطين تحت عنوان وصدمة «إسرائيل» الذين هم أبناء العم سابقًا.. يعملون دائبين على استعادة لسانهم العبري، لكي يتحدوا به المحال نحو أهداف إسرائيل الكبرى، ويدعموا الباطل، وينتزعوا القدس، ويهددوا «بيت الله» وقبلة المسلمين.. متجهين بإحياء العبرية من أكفانها إلى تهويد الوطن الفلسطيني، وإلى التوسع في فرض أدبها العنصري والعدواني على أخلاق ومعتقدات أمة كبيرة ليقتلوها صبرًا فوق أرضها، وهي الأمة العربية التي خرج منها برهانًا على بقائها، وخلود مقوماتها، وشموخ ركائزها، كل من إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وموسى، والمسيح، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام.

ربما يكون الوهم قد سبق إلى الصهيونية وغيرها من أعداء الحق والعدل والسلام، بأن تدهور اللسان العربي إلى لهجات عاجزة عن التعبير الموحد والهادف، والباني بوحدة كيانه الصوتي والمعنوي لوحدة الفكر والاعتقاد، إنما يعني حتمية ضياع العرب المتلاحق – برغم صحوتهم التي يتشبثون بها – حتى ينتهي الأمر بهم إلى الانقراض التاريخي كما انقرض الرومان واللاتين من قبل.. وها هي ذي اللهجات العربية التي يلوكها العرب

اليوم في أكثر بلادهم تقدم الدليل على ذلك بتآكل حروفها المميزة لها مثل: الضاد التي أصبحت دالًا، والصاد التي أصبحت سينًا، والقاف التي أصبحت كافًا، والظاء التي أصبحت زايًا.. وبقى أن ينطمس أيضًا أو أن ينغلق حرف الـ«ع» أو «العين» حتى تصبح هذه الأجيال الجديدة التي فرضت عليها مخططات «التفرنج اللغوي» عاجزة عن «رؤية» الطريق الصحيح للخروج من أزمتها.!

إن هذا في الواقع الملموس هو ما تعمل له، وما تنتظر أسوأ نتائجه على اللغة العربية، جميع القوى المعادية للعرب، ولكن..

إن جميع المؤشرات الصحيحة في حركة العالم المعاصر، وداخل الوطن العربي المتمسك بصحوته وعروبته، والمصحح لأخطائه وهفواته، تؤكد أن موت اللغة العربية التي لم تمت منذ فجر حياة البشر، والتي نزل بها الكتاب الحافظ للدين الحق، وللسان العربي المبين، لا يمكن أن تموت.. بل إن الحياة.. والحياة النقية المشرقة، والهادفة، هي ما ينتظر هذه اللغة، التي يتحد على بيانها ولسانها وفرقانها «كل العرب».. كما اتحدوا وانتصروا وتقدموا من قبل.. مع انفراج كل شدة.. وفي فجر كل صحوة.. بمشيئة الله.

الفصل الثاني

محاولات الغزو العقلي للعرب

باسم التقدم في العصر الحديث

من خلال تعقب الجذور لهذه «الظاهرة» التي يصمت بها الأدب العربي لأول مرة مع صحوة صادقة للعرب، وحيث يتوقف بذلك تيار الفكر الموحد وتضيع معالم الثقافة العربية القومية، لا يصعب أن نكتشف وراءها هذه المخططات، والمحاولات، لغزو العقل العربي في العصر الحديث، داخل طوفان هذا الصراع المذهبي الشرقي والغربي والصهيوني، وذلك باتجاه تقويض ركائز هذا العقل المتميز عبر التاريخ، وهدم مقومات نشاطه، واستنزاف قواه، ومحو معالمه، في حين أن هذه الجوقة من الغزاة والمقلدين لهم تحمل على رؤوس كلماتها قبعات أفكارهم، وهي تصرخ وتنادي على بضاعتها الفكرية المستوردة، والمتناقضة فيما بينها، والمتناقضة بوضوح مع هوية وأصالة الإنسان العربي – بهذه الكلمة المظلومة دائمًا في أفواههم.. وهي «التقدم»!

العرب والتقدمية:

وقبل أن نمضي بعيدًا عن فحص هذه الظاهرة الشاذة من صمت الأدب العربي مع شدة حاجة العرب في صحوتهم إليه، ننبه القارئ إلى أن كلمة «التقدم» المستخدمة عربيًا في هذا العصر على أنها ترجمة للكلمة المقابلة لها في اللغات الأجنبية Progress إنما هي بلفظها تعبير عربي أصيل، وقديم، يحمل في معنى التقدم للفرد والمجتمع ما هو أصدق وأقوم من حقائق السبق والصدق في تنشئة الفرد وبناء المجتمع على الحرية والحق والسواسية والعدل والسلام مما تحاول المجتمعات الأوربية المتقدمة في هذا العصر – أو في أي عصر مضى – أن تصل إليه..

ونكتفي بالإشارة إلى ظهور هذه الكلمة بمعناها العربي الأصدق والأقوم في مناسبتين اثنتين من مراحل الدعوة الإسلامية على أرض شروق وانتصار الإسلام، وبين الناطقين المبينين بلغة كتابه.

لقد ظهرت هذه الكلمة «التقدمية» في المناسبة الأولى في شعر أمية ابن أبي الصلت وهو يرثي قتلى بدر من أعلام وشيوخ وفرسان قريش، الذين قاتلوا عن شركهم بالله، وعن حياتهم الاستمتاعية الرخية في ظلال هذا الشرك، على طريق «التقدم» للقتال عما يعتقدونه بسيوفهم حتى الموت، فهو يقول في رثائه لهم:

القائلين الفاعلين الآمرين بكل صالح

الضاربين «التقدمية» بالمهندة الصفائح

فهذا القتال المستبسل «تقدميًا» بالسيوف كان يعني بمفهوم الشاعر، وعند العرب في عصر البعثة، أنه الصورة الحسية للتقدم بالقتال فوق كل عائق إلى أوائل الصفوف في ساحة الحرب، حتى يبقى طريق «التقدم» بالحرية في حياتهم مفتوحًا دائمًا أمامهم، وممتدًا..

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواجهته عناد قريش قبل أن تلين وتذعن للحق، يستخدم بعد ذلك كلمة «التقدم» وهو يقود «تقدمية» قريش ويصحح اتجاهها – بهذا المعنى التاريخي الصحيح للدلالة على التقدم مع سنن الله، من الغفوة إلى الصحوة، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن سورة الترف والمكاثرة بالأموال والأبناء إلى نعمة الإنفاق في الإسلام، وإلى ألفة المساواة في الحقوق والواجبات. وكان عليه الصلاة والسلام قد أمر يومذاك بحفر الخندق حول المدينة ليحول بين قريش وحلفائها من اقتحامها. وفي طليعة أصحابه كان صلى الله عليه وسلم يشاركهم أعمال الحفر، وهو يتمثل رائحًا وغاديًا بشعر الحصين بن الحمام المري من شعراء مرحلة الصحوة قبل الإسلام، مرددًا على أسماعهم من جيد هذا الشعر، وحكمته المأثورة، ما يشد به عزائمهم حول المعنى الصحيح والمأثور في حياة العرب الصحيحة كلها عن «التقدمية»..

و«التقدم».. وذلك حيث اختار عليه الصلاة والسلام أن يردد – كما جاء في كتب السيرة – هذه الأبيات التي تقول:

تأَخَّرتُ أَستبقي الحيَاة فلم أَجِدْ ... لِنفْسي حياة غيْرَ أَن أَتقدَّمَا

فليس على الأَعقابِ تَدْمَى كلومُنَا ... ولكن على أَقدامِنَا تَقْطُر الدِّما

نُفَلِّق هامًا من رجالٍ أَعِزَّةٍ ... علينا وهم كانُوا أَعقَّ وأَظْلَمَا

فهذا هو «التقدم» في معناه العربي الأصيل، والقويم، كما أرسى به الإسلام في كل أطوار إشراقه، ومراحل دعوته، صادرًا عن كتاب الله وتاريخ الدين الحق – حقائق ومعالم وغايات هذه «التقدمية» الإسلامية، التي نعى الحق، وتقاتل عن الحق، دفاعًا عن الحق، لكي «تتقدم» بالحق، وتتجاوز وتتخطى غير الحق..

الغزو العقلي:

ربما كان أقرب التواريخ إلى بداية التخطيط لهذا الغزو العقلي لمقومات البقاء العربي هو هذه الهزيمة المدوية التي لحقت بالعدوان الأوربي المتأجج ضد العرب والإسلام عقب الحروب الصليبية، التي لم تحقق أهدافها برغم تجدد حملاتها الوحشية خلال نحو قرنين من الزمان. ففي أعقاب هذه الهزيمة التاريخية توصل العدوان الأوربي بعد دراسة النتائج العكسية لهذه الحروب السافرة إلى أنه من الأفضل له أن يخطط في حربه للعرب ومقوماتهم لأنواع من الحروب والحملات غير العسكرية، وفي نفس الاتجاه الروماني القديم لسرقة مواردهم التي لا تنفد، والاستئثار بشمسهم التي لا تغيب.

وهكذا كان الرأي الذي تمت تجربته، ونشطت الجهود لتطوير مبتكراته هو أن يباشروا غزو العرب بحرب الأفكار والكلمات،

والشعارات الفارغة والمضللة، التي تنشر وراءها الكثير من المذاهب الدخيلة، والإلهاءات المدمرة، التي يفوق فتكها الظاهر والخفي ضربات الجيوش الجرارة، أو الأوبئة الفتاكة..

ولما كان من الضروري إنشاء مصادر أو صناعة متنقلة لهذه «الأكاذيب» و«الأوهام».. و«المخدرات» العقلية التي يراد نقلها إلى العرب، لإثارتهم نحو «السراب» و«الضياع» ولإلقاء الفرقة والخلاف بينهم داخل هذا السراب – فقد توصل دهاتهم إلى ابتداع صناعة «الاستشراق»، وإلى اختراع فنون ووسائل ومعاهد خاصة لتشكيل هذه الكتائب الهجومية والخداعية من «المستشرقين» الذين أشرفت هيئات دينية وعلمية وسياسية خاصة على تنشئتهم منذ الصغر، وعلى حضانة وتنمية «العدوانية» فيهم وهم يعلمونهم اللغة العربية، ويوجهونهم في نفس الوقت، وطول الوقت، إلى هدف القضاء على أهلها.. نفس الهدف الروماني والصليبي القديم ولكن من غير ضجة.. بل من خلال زرع الأفكار السرابية المميتة في كتب ينشرها المستشرقون عن: الإسلام.. أو النبي محمد.. أو اللغة العربية.. أو التاريخ العربي.. أو تاريخ الفرق والمذاهب الإلحادية الهدامة التي نشأت لتقويض الدولة العربية بتأثير فلسفات فارسية ويونانية وهندية، مثل القرامطة، والإسماعيلية، والفاطمية، والبابلية.. وغيرها..

وهكذا سار الأمر، فأصبح لكل مستشرق أتباع ومدرسة، وجاء الاستعمار فعزز من عمل المستشرقين، وفرض تدريس مذاهبهم في الجامعات من باب حرية الإطلاع على ما يجري في العالم، في حين صادر دراسة الدين واللغة في الجامعات نفسها بعد أن قوض ركائزها بإزالة ما كان سائدًا من تحفيظ القرآن الكريم، أو ما تيسر منه منذ الطفولة المبكرة.. كما أنه بجرأة لم نواجهها حتى اليوم عزل ما سماه بالتعليم

«المدني» عما سماه بالتعليم «الديني» في الأزهر ومعاهده، وبذلك شطر الذات العربية المؤمنة، والمجتمع العربي المؤمن، إلى شطرين لا يعيشان ولا ينموان بغير وحدتهما..!

الأيديولوجيات المستوردة:

لقد سار هذا الخطر على وحدتنا طويلًا متسترًا ولا يزال وراء هذا الاستعمار الفكري، الأملس والخفي، وابتداء من صليل وومضات سيوف النظريات الاستشراقية في كيدها السافر، وحقدها الدفين، وهو الاستعمار المتعدد الوجوه والضربات، والذي ما كان له أن ينظم حشوده، وأن يحشد مردته باتجاه أرض العرب إلا بعد أن تم للصهيونية العالمية أن تمارس هذا الاستعمار العقلي نفسه على أوربا كلها، شرقًا وغربًا، والتي عممت من خلاله جميع فلسفاتها الخداعية على كل شعوب أوربا في جميع المجالات العلمية، والدينية، والسياسية، والثقافية، والفنية، والإعلامية، محققة من خلال ذلك، وبإيقاع ديني عنصري سري منتظم بين جميع يهود أوربا، جمع وتكديس وتحريك الأموال الطائلة التي تستولي عليها لتنمية وتركيز هذه السلطة الصهيونية في قبضة واحدة خفية، من أجل السيادة المطلقة – كما يتوهمون ويحلمون – على كل العالم!

لقد كان استسلام الدول الأوربية في عصر تقدمها، وحتى اليوم، لهذه القوى الصهيونية العنصرية العالمية هو ساحة التجارب الأولى لنجاح الاستعمار العقلي، أو الغزو الفكري، فلقد تحولت أوربا كلها وهي تتنازل عن طابعها اليوناني واللاتيني والجرماني القديم، ومن خلال المذاهب الفلسفية المبتدعة، والمتضاربة بين ما هو بلغة العصر «مادي» جدًا، أو «روحي» جدًا، وبين ما هو علمي جدًا، أو خرافي جدًا، من أمثال هذه الفلسفات «السرابية» وغير الإنسانية التي قدمها كل من الفلاسفة

الصهاينة باروخ سبينوزا، وجوته، وهيجل، وكارل ماركس، وفرويد، وبرجسون، وصمويل بتلر..!

لقد تحولت أوربا وحتى الساحل الغربي للولايات المتحدة إلى كيان فكري مصطنع، ومتضارب، ومنفصم عن إرادته، تحت تأثير هذه الفلسفات الصهيونية التي نخرت عظامه، مع تزايد عجز هذه الشعوب الأوربية والأمريكية عن التكيف الذاتي مع تاريخها وجذورها، بطريقة تكشف لها عما هو أفضل للسيطرة على واقعها، والخروج من مأزق انهيار حضارتها. وبذلك أخذت أعراض هذا الانهيار الكبير تظهر على دعائم هذه الحضارة «الصهيو أوربية» المشدودة على وجهها في قبضة الصهيونية العالمية، والمتقدمة علميًا وصناعيًا في الظاهر، والمتخلفة سياسيًا واجتماعيًا في الواقع، في حين هي تتجه بتأثير القوى الصهيونية المسيطرة عليها إلى رفض ماضيها كله بمعنى محدد هو رفض الدين والمسيحية بالذات، وإنكار الله إنكارًا صريحًا أو خفيًا، ليكون البديل هو «الأيديولوجية» أو النظرية الوهمية القائمة على شكل من أشكال «تصنيع» الأفكار باتجاهات متنوعة في مجال الاقتصاد والسياسة، كما لو كانت هذه الأفكار خامات طيعة قابلة للتشكيل في أي اتجاه في يد الصانع المستغل والعابث، ولحساب تأجيج جذوة الصراعات العالمية حول هذه «الأيديولوجيات» الخطرة والهدامة، لصالح القوة الصهيونية العنصرية وحدها، التي تقود هذه الصراعات باتجاه تزايد سلطتها الابتزازية والتوسعية على كل شعوب العالم.

وهكذا دارت الصهيونية العالمية دورتها الخفية تحت أرض أوربا، ومن خلال ضبابها وسحبها، وهي تقتات منذ فيلسوفها سبينوزا من مخلفات ما استحوذت عليه من أفكار الحضارة العربية الإسلامية في

الأندلس، في حين هي تعيد تشكيلها وصياغتها بحيث تنتهي دائمًا إلى هذه «الأيديولوجيات» أي «الفكريات»، وهي من كلمة Idio يعني: فكر.. كما توصل إلى اختراعها ذلك الفيلسوف الفرنسي المغمور ديتوت دي تراسي «1754 – 1836» وهو الاختراع الذي استغلته الصهيونية لكي تجعل من «تصنيع» الأفكار، أو من صناعة «الأيديولوجيات»، مجالًا لترويج الفلسفات الظنية، أو الديانات البشرية الوضعية، بين ضحاياها في كل العالم، في حين ينشأ وراء هذه الفلسفات السرابية آلهة من البشر يخضعون بدورهم لقبضة هذه القوة الخفية للصهيونية العالمية التوسعية.

ولقد كان من الطبيعي أن يكون الوطن العربي – كما ذكرنا – هدفًا لهذه الحرب الأيديولوجية التي تقودها الصهيونية للسيطرة على العالم المتقدم والمتخلف على السواء. على أنه بالنسبة للعرب بالذات، والذين هم القوة الأقوى في العالم لو أنهم توحدوا مرة أخرى على لغتهم ودينهم ومقوماتهم، فإن الصهيونية العالمية التي تعلم ذلك كل العلم، وتخشى من وقوع هذا التوحيد في هذه الصحوة أشد الخشية – تنظر إلى هدف القضاء على وحدة الأمة العربية نظرة أكثر تحفزًا وتركيزًا، لأنها قد قررت طوال مراحل نشأة الصهيونية، أن تكون بداية التحقق لأحلام أحبارها الوهمية بإقامة «الدولة الوحيدة» في الأرض، رهنًا بعملية الاستيلاء على أرض فلسطين، التي ترتبط في نفس الوقت ببداية ظهور التحقيق العملي لدولة «إسرائيل الكبرى» فوق أنقاض العرب «من النيل إلى الفرات»، وحيث تقوم عاصمة هذه الدولة الخرافية على أطلال وأنقاض القدس العربية، التي ستكون – في الأصل الخرافي أيضًا – هي العاصمة الأبدية للدولة الصهيونية الوهمية.. الكبرى!!

من هو العربي:

والآن.. ونحن في مخاطر هذا الظلام والزحام، وفي مواجهة هذا الخداع والصراع، نرى الإنسان العربي وهو يطلب النور الهادئ والكاشف لا يزال يضع يديه على رأسه، باحثًا عن عقله وهويته، وعن ذاته وأصالته، متلمسًا أية فرجة ينبثق منها الضوء إليه، ويصل منها إلى سمعه ووعيه، تعبيرًا بالكلمات المشرقة عن ذاته الحية في أمواج تلك الأصوات المتزاحمة والمتصارعة، التي لا يجد فيها نفسه، ولا أصالته، وإنما يتلقى منها فقط هذه الضربات «الأيديولوجية» القادمة إليه صاروخيًا من أهل الشرق والغرب، لتتقل إليه نفس الإيحاء بالخضوع لذات المخطط الصهيوني الواسع الخفي، الذين خضعوا ولا يزالون يخضعون له.. وحتى تضيع فلسطين، والقدس، ويتمزق العرب ووراءهم المسلمون، وينتهي كل شيء.. إذا ما نجح المخطط الصهيوني البشع، وغير الإنساني، والفاشل، والغبي في نفس الوقت، في تحقيق الأوهام والأحلام!

إن الإنسان العربي يسأل نفسه اليوم ومن خلال صحوته عن طرق استرجاع ذاته، واستعادة أصالته، وإحياء مقوماته التي عاش بها الآماد الطويلة منذ فجر التاريخ حرًا يملك إرادته وقراره، ويملك نفسه وحقيقته، بغير ملوك ولا كهنة، وفوق أي وهم لفلسفة أو أيديولوجية، حول بيت الله القائم بواد غير ذي زرع..

إنه يسأل، ويدأب في السؤال والتدبر والتقصي، وهو يستنكر تمامًا وهو واقف على أرضه، وتحت مشرق تاريخه وشمسه، وجلجلة كتاب الله ووصاياه إليه — أن تذوب هويته وحقيقته، وأن تضيع أصالته ومقوماته، أمام عينيه، وهو ومائة مليون من أشقائه ساكنون لا يتحركون، ولا يفكرون، ولا يتدبرون، ولا يستذكرون فيذكرون. داخل معركة هذه

الإبـادة الـتي تـدور رحاهـا المسـموعة، والمكتومـة الأصـوات، والسـرية الإشـارات، فـوق مـا يـراد أن يكـون حطـامهم وأشـلاءهم.. فكيـف.. وإلى متى؟!

وعندما يلوح الشك في ذاته وحقيقته بعيدًا أمام عينيه يسأل نفسه عن نفسه ليعرف حقًا من هو؟.. من هو هذا الإنسان العربي الذي تضطرب الأحداث اليوم فوق أرضه.. وتظهر أنياب الطامعين في موارده وأنهاره وبحاره وحصونه من كل اتجاه؟!

نعم من هو.. وهل لا يزال يتذكر؟

ولكن كيف يتيسر له – هذا الإنسان العربي – أن يرى هذا الطريق الصحيح للكشف عن ذاته وحقيقته، وعن أصالته ومقوماته، وهو إذا أخرج يده في ظلمات هذا الصراع على احتواء عقله، وإذابة إرادته، لم يكد يراها..؟

كيف يتيسر له وهو يبحث، ويتفكر، ويتعقل، أن يجد طريقه الصحيح للبحث، والتفكر، والتعقل، ليكشف بذلك عن طريقه الأول، والثابت، والدائم، والمتجدد بمنهجه وغاياته مع العصر.. طريقه إلى الله الحق؟!

إنه سيجرب.. سيبحث عن أقرب الطرق ليعرف: من هو؟.. وليس بعيدًا أن يهديه الله.. إن شاء الله..

الفصل الثالث

الهوية الضائعة للإنسان العربي

يجدها مشرقة في لغته المبينة

ومرة أخرى.. يسأل العربي نفسه قائلاً: من هو؟

من هو بين غيره من البشر؟.. من هو بهذه الدلالة التي تجعله بين جميع الشعوب الأخرى دليلًا على نفسه، وآية في ذاته.. تجعله: هو هو.. في حقيقته وأصالته.. ولا تجعله أبدًا هذا القناع على «غيره فيه» أو على غيره «في صورته»..؟!

لقد سأل نفسه وأجاب، وكانت بداية إجابته هو بحثه عن هذه الدلالة التي اختارها اليهودي، ابن عمه المتألب عليه، إطارًا للتعريف بذاته ووجهته وأصالته، في مرحلة متأخرة من تاريخه، ومن هذا البحث علم أن أبناء إسرائيل الذين هم أبناء يعقوب وإسحاق وإبراهيم، قد اختاروا في صهيونيتهم الأولى أن ينتسبوا إلى جدهم يهوذا بدلًا من يعقوب وإسحاق أبناء إبراهيم، وذلك لينفصلوا عن قوميتهم الصريحة التي تلزمهم -كما التزام العرب- بأعمال آبائهم أمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، واتباعًا لوصايا الله، وحتى يجعلوا من مجرد هذا الانتساب لإبراهيم وإسحاق ويعقوب مبررًا لحلمهم العنصري بالسيادة على البشر، وتسخيرهم لكل البشر، باتجاههم إلى إقامة خرافة «الدولة الواحدة» الخفية التي تحكم كل العالم، وتلغي كل الديانات والثقافات..

وأما الشعوب الآرية، التي لم تبلغ بلغاتها رسالات ورسل من الله، سواء في فارس والهند، أو في الشعوب الأوربية المنتسبة إليهما، فقد عرفوا ذاتهم، واستثبتوا أصالتهم، في فلسفتهم التي عبروا بها عن عقيدتهم الثابتة في تقسيم البشر إلى «سادة وعبيد»، وقد اختاروا لأنفسهم أن يكونوا هم «السادة» في هذا العالم، أي الآريين وهي من كلمة «آريا» باللغة الهندية السنسكريتية ومعناها «السيد»....!

وهكذا كان الرجل الأوربي، الجليدي، الأبيض، والذي انتقل لاستيطان أوربا الباردة من بلاد الهند الحارة، عبر رحلات همجية، وصراعات وحشية، وحياة بدائية، استغرقت قرونًا قبل أن «يتمدن» اليونان والرومان على أيدي العرب الكنعانيين، وقبل أن يتقدم الإسبان والفرنسيون والإنجليز والإيطاليون على أيدي العرب المسلمين –كان هذا الرجل الأوربي يرى نفسه بهذه الآرية العنصرية متميزًا على إخوانه من البشر «الملونين» بكونه الأبيض لونًا، وإن كان هو الأسود عقلًا وعملًا وعدوانًا، وهو كلما ملك القوة والإرادة سطا على معلميه، أو الغافلين عنه، في حال غفلتهم وانقسامهم، فسيطر عليهم، وأذلهم، واغتصب مواردهم، وعمل على إبادتهم، كما حدث ذلك على عهد اليونان والرومان خلال نحو ألف سنة على أرض العرب، في مصر والشام والعراق، وقبل ظهور الإسلام في الجزيرة العربية حول بيت الله، وإجلاء «السادة» المغتصبين..!!

الانتماء للبيان:

وأما العرب –على طريق سؤال الإنسان العربي نفسه عن نفسه- فقد انتسبوا في تعريف ذاتهم، وكما شاء الله من اجتبائه لهم برسالة الدين في أنفسهم وإلى من حولهم –انتسبوا إلى «الكلمة المبينة».. الكلمة التي أنطقهم الله بها في كمال خلقهم اللغوي والإنسان على هذه الأرض «معربين» عن الصدق والحق.. الصدق الذي لا يتناقض مع العلم، ولا مع سنن الله في الخلق، ولا مع حقائق الإيمان بهذا الخالق المبدع لكل ما حولهم من أرض وما فوقهم من سماء، بعد أن استدلوا ببيان لغتهم عليه، وسموه باسمه الحق «الله» الذي انفردت لغتهم بين كل اللغات به، وهم يشهدون في كل يوم، بالنهار والليل، هذا البرهان الحسي على أن هذا الإله

الواحد القادر الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، هو الله الحق، الجدير وحده بالطاعة والعبادة، معتزين به فوق كل المخاطر، والمخاوف، والآلهة الكاذبة من البشر أو غيرهم.

العرب إذن قد نظروا إلى الإنسان –في نور اهتدائهم إلى الله، وإيمانهم به، وإعرابهم ببيان ألسنتهم عن اليقين بوحدانيته – على أنهم لا ينقسمون قط إلى سادة وعبيد كما زعم الآريون، وكما لحق بهم الصهاينة من اليهود، فالناس جميعًا تحت الله سواء، ولكنهم ينقسمون بحسب لغتهم، وقدرة الكلمة المعبرة في ألسنتهم، **إلى قسمين:**

الأول- إلى مستبينين لما حولهم من واقع الخلق المتحرك بسنن الله في السموات والأرض، ومبينين بالكلمة الصادقة والبالغة إلى غايتها عما حولهم، وهؤلاء هم «العرب» أي المستبينون المبينون..

والآخر- إلى غير هؤلاء ممن أبهم عليهم الحق الظاهر حولهم، واستعجم عليهم «البيان» عنه، سواء بالإدراك لما وراء هذا الخلق، أو لما وراء هذا «الوجود» كما يرونه، وكيف بدأ، وإلى أي نهاية تنتهي، ولماذا وكيف كان الإنسان؟ فأصبحوا بهذا العجز عن الاستبانة، والتعقل، والسقوط عن مستوى الرؤية والكشف عن حقائق الدين والحق، والإيمان بالله الحق «عجمًا» أو «مستعجمين» وهما كلمتان لا مقابل لهما مع كلمات «عربي ومعرب ومبين» في أية لغة أعجمية غير عربية.

على أن هؤلاء العجم أو المستعجمين كانوا ولا يزالون في شرف ونقاء وكمال اللغة العربية المبينة قابلين بغير استعلاء من أحد، وبغير تسيد أو بغي، لكي «يتعربوا» و«يستبينوا» إذا ما أحبوا ذلك لأنفسهم، وإذا ما سلكوا إلى هذا «التعرب» باللغة والعقل والعمل نفس الطرق التي سلكها العرب، متأسين بهم، ومؤمنين بما نزل من الله من الدين الحق والكتاب

المبين إليهم، كما حدث ذلك بعد الفتح الإسلامي، وفي المراحل الأولى من مشرق شمس الحضارة العربية الإسلامية، حيث تعرب الكثير من الشعوب، حتى البربر والإسبان، تحت راية الإسلام البيضاء، وعلى طريق شريعته السمحة..

إذن فمن الإنصات الواعي والمتدبر إلى هذه «اللغة العربية» الفصحى، التي هي لغة الإنسان الحر، المبين عن الصدق، وعن الحق، بما في كلماته، وحيوية عباراته، وإيقاع صوته، يبدأ التعرف على من هو «العربي»، وما هي حقيقة ذاته، ومقومات أصالته، التي إذا جمع نفسه عليها، وملك إرادته بها، لم يعد صيدًا لهذا الغزو العقلي، أو ضحية لهذا الاستعمار الأيديولوجي، واستطاع فوق كل التحديات أن يعود إلى ما كان عليه في أوج إشراقه، متحركًا مع العصر، ظاهرًا بحقيقته وأصالته بين الشعوب، ليكن «هو هو» كما ينبغي أن يكون، وليس «غيره فيه» الأمر الذي يجب ألا يكون.

وحتى وهم يعترفون:

نعم.. وحتى بعض المستشرقين، وعدد من الخصوم التقليديين، أدركوا بدارسة اللغة العربية، وإطالة الاستماع إليها من أفواه أهلها، مدى ما في كيانها الحي المتجدد من الملكات والقدرات التي هيأتها لقيادة هذا الفتح الحضاري العربي السلمي للإسلام في تاريخ العالم، نذكر من هؤلاء على سبيل المثال أحد كبار المتعصبين لمسيحيتهم وهو المؤرخ الفرنسي يوسف إرنست رينان المستشرق أو المستعرب، وعالم اللغات، الذي وقف من خلال دراسته الواعية للغة العربية وسط اللهجات المتفرعة عليها مثل: الآرامية والسوريانية والعبرية، ليعلن في إنصاف العالم الأمين عن رأيه الذي

يزكي به قدرات هذه اللغة التي تكلم بها العرب، ونزل بها القرآن، وذلك في كتابة «تاريخ عام ودراسته مقارنة للغات السامية»..

يقول رينان في ثنايا هذا الكتاب:

«إنه وسط شبه الجزيرة العربية، وهو موطن العرب الأصلي، الذي لم يظهر في تاريخ الشرق القديم إلا متأخرًا، ومع ذلك فإن هنا بالتحديد تستمر بفضل الحياة البدوية هذه الميزات الأصلية للعرب. ففي القرن السادس الميلادي –أي قبل ظهور الإسلام– يتراءى هناك عالم زاخر بالحياة، والشعر، والرقي الفكري، في بلاد لم تعط حتى هذا التاريخ – بالنسبة لأوربا – أي علامة على وجودها..».

ثم يقول: «فبدون سابقه ولا تمهيد نلتقي فجأة بفترة «المعلقات» وغيرها، من الشعر الفطري في مضمونه، بينما هو من حيث الشكل في غاية الأناقة، وفي لغة هي منذ البداية تفوق في بدائعها أكثر أنواع الكلام عمقًا بالثقافة، وبألوان الحصافة في النقد الأدبي وفي البيان، شبيهة بما نجده في أشد عصور الإنسانية إعمالًا للفكر. فإذا ما وجدنا هذه الحركة تنتهي بعد قرن من الزمان إلى «دين جديد» يفتح نصف العالم، أفليس من حقنا إزاء ذلك أن نقول إن بلاد العرب – دون جميع البلاد – تشذ أكبر الشذوذ عن كل القوانين التي نحاول بمقتضاها أن نفسر تطور الفكر الإنسان؟!»

ثم يقول رينان بعد ذلك:

«ومن بين الظواهر التي اقترن بها هذا الانبثاق غير المنتظر لوعي جيد في الجنس البشري – يعني ظهور الإسلام ونزول القرآن – ربما كانت اللغة العربية نفسها هي الظاهرة الأشد غرابة، والأكثر استعصاء على الشرح

والتعليل، فهذه اللغة المجهولة عالميًا قبل هذا التاريخ تبدو لنا فجأة بكل كمالها، ومرونتها، وثروتها التي لا تنتهي. لقد كانت من الكمال منذ بدايتها بدرجة تدفعنا إلى القول بإيجاز إنها منذ ذلك الوقت، وحتى العصر الحديث، لم تتعرض لأي تعديل ذي بال. اللغة العربية لا طفولة لها، وليست لها شيخوخة أيضًا، منذ ظهرت على العالم بياتها وانتصاراتها».

هذا رأي أحد عمالقة الخصوم الأوربيين اللذين بهرهم مع «التعرب» بدراسة اللغة العربية، والإنصات بكل حواس العالم والمتعلم إليها، للمقارنة بينها وبين غريها، ما كشف عنه من تفوقها على غيرها من جميع لغات البشر بدقة نظامها الصوتي، وتقنينها المعنوي، مع شبابها الدائم بكمالها التعبيري، وهو رأي كان يختفي وراءه أكثر من الانبهار الذي عبر عنه مستشرق آخر أكثر إنصافًا هو العالم الانجليزي توماس أرنولد الذي أشار إلى رينان في كتابه البالغ باللغة العربية بعد دراستها، واستماعه إليها في أفواه أهلها، وفي تلاوات للقرآن الكريم في المساجد، هزت من أعماقه إلى حد السجود له حتى ليروي توماس أرنولد عنه قوله:

«كان رينان يقول: ما دخلت مسجدًا قط دون أن تهزني عاطفة حاجة، ودون أن يصيبني أسف محقق على أني لم أكن مسلمًا»!!

فكيف لا تكون هذه اللغة العربية إذن بوجهها الشاب الصبوح، وبخلود كمالها إلى اليوم في كتاب الله، وفي جوامع كلم الرسول، وفي تاريخها الديني الذي خصها الله فيه بكتبه ورسالاته، وفيما حولها من هذا الوطن العربي الفسيح المضيء، والمتوسط لكل العالم، والمشرق على كل

العصور... كيف لا تكون هذه اللغة المبينة هي المدخل إلى تعرف الإنسان العربي على نفسه ليعرف: من هو؟.. وعلى حقيقته وذاته ليعرف: ما هي؟... وعلى أصالته ومقوماته ليسأل: أين هي؟.. حتى يستعيد بذلك عصمته من الضياع، وحصانته من الغزو، وحتى يخلع عن وجهه النبيل، وعن معالم ذاته الحرة، هذا القناع المهلهل المهين: «غيره فيه».. أو «غيره في صورته»!!!

الوجود باللغة:

إن مثل هذه الشواهد الكثيرة في التاريخ الصحيح، وفي صوت الفطرة الحية، وفي نداء القرآن الكريم مهما طال هجره، بل في أقوال الخصوم المنصفين – تدل على حقيقة هذا الوجود الحي باللغة كما عاشه العرب في صورته الفطرية النقية، وغير المتناقضة بمعانيها وغاياتها مع العلم، ولا مع سنن الله في الخلق، ولا مع رشد الإنسان وتعاقب العصور..

إنها تدل على حقيقة هذا الوجود اللغوي الحي، والمتجدد بالاصطفاء والنماء، في حياة العرب.. هذا الوجود اللغوي «الزاخر بالحياة والثقافة والرقي الفكري» كما يقول رينان، والشاهد إلى اليوم على أن صحوة التعبير، وصحوة العقل، وجلاء الذات بالنسبة للإنسان العربي المعاصر – يمكن أن تتحقق له إذا ما وضع نفسه بوعيه وعقله واختياره في الموقف السليم من حاجته إلى هذا «الوجود اللغوي» المزدهر بهذه اللغة العربية القرآنية، بكل كمالها، ومرونتها، وثروتها التي لا تنتهي، وبكل شبابها وخلودها وهي تستعبد قدراتها على التعبير الديني، العلمي واليقيني، وعلى هذا الاستخلاف الدنيوي في الأرض، والتقدم العمراني على مواردها، من أجل تحقيق هذا الخلود الأخروي بعد الحياة والحساب..

إنه لا شك – وكيف نشك – في أن الإنسان العربي المعاصر، هو الأقدر في هذا الواقع المحيط به على أن يربط في مناخ صحوته، بالعلم والإيمان، بين رؤيته الشمولية لملكوت السموات والأرض، في وطنه الفسيح المضيء من المحيط إلى الخليج، وبين التعبير الحر عن هذا الملكوت السماوي والأرضي، الدنيوي والأخروي، بصوته العربي، الإيقاعي والمبين، هذا التعبير الحي، الذي لا تتغير دلالته من كل زوايا الرؤية البصرية والعقلية لهذا الواقع، وهي تعكس بكمالات التكوين التعبيري لكل من أجزاء وجزئيات الصورة، والصوت، والحركة، والفكرة، برهان هذا الواقع المضيء والمتسق على أن الله الواحد هو الخالق الحق، الذي منه البدء.. وإليه المنتهى..

على أن مثل هذا الذي نقوله في الفصول الأولى من هذا الكتاب عن منهج التفكير الإسلامي للعقل العربي، مستندين إلى خصائص البيان العربي في اللسان العربي، ليس من الإنشاء المنغم، والحب البالغ لهذا البيان، وإنما هو تنبيه وتنويه موجز لا يمكن أن يقال أقل منه في وقفة الانتباه والإعظام لهذا العلم الكامل والزاخر بالشباب والحياة والخلود، في هذه الآية الكبرى بكل غاياتها الإنسانية البعيدة، كما اجتبى الله العرب لها، واجتباهم بها..

إن هذا البيان في اللسان العربي هو في حقيقته علم كامل بمفهوم العلوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية، والعلوم البيئية والجغرافية مجتمعة. وهو علم وإن كان فوق الإحاطة به إلى اليوم، إلا أنه من الممكن، بل من المحتم في صحوة الأمة العربية في هذا العصر أن تلم بكل ما يتيسر لها من أبعاده، التي يكشف عنها الوحي في بيان القرآن الكريم، وأولها هذه الحروف التامة التي تحكمها في اللسان العربي المبين قوانين علمية هي أقرب في

الملكوت المسموع إلى تنبيه العقل الإنساني إلى الله بدلالة آياته في الملكوت المشهود.. والمرئي..

ذلك لأنها – أي هذه الحروف – هي التي تحمل إلى السامع العربي، المتحرك وسط آيات هذا الخلق المتحرك، هذه الدلالة الحية على الله في السموات والأرض، بالغة بصوته، وبالإيقاع المتسق مع حركة الواقع بهذا الصوت، إلى أعمق شعوره، وعقله، ونفسه، وفطرته، في حين هي تقوده في نور العلم والإيمان، وفي أمنه النفسي بالصدق والعمل؛ لكي ينتصر بإخلاص حياته لله، متخطيًا لكل عقبة، متوجهًا لأشرف غاية، عبر كل زمان ومكان.

الفصل الرابع

وفي البدء المضيء بحركة الواقع
نشأت اللغة العربية تامة الحروف

وإنهـا لآيـة حقًـا أن تنشـأ اللغـة العربيـة في هـذا البـداء المضـيء، والمتحـرك، والـذي تحـرك الإنسـان العربـي في واقعـه، وبـين آياتـه، ليتـدبر ويعقـل البرهـان علـى الله، تامـة الحـروف بالنسـبة لجميـع لغـات البشـر، مسـتوفية الأوتـار، ودقيقـة الأداء، وصـحيحة المخـارج لأداة النطـق، في فـم الإنسان وحلقه ولسانه، بحيث تكون هذه الحروف بهذا الكمال الصوتي آية هذا الارتباط الوثيق في حياة الإنسان بين تمام لغته المبينة، ودوام سيره في الأرض ليستدل ببرهان الآيات على الله، ويؤمن به..

بهـذه الآيـة الـتي خلـدها القـرآن الكـريم بتنزيلـه، وأحـرف بيانـه، اسـتطاع الإنسـان العربـي أن ينطـق إلى حـد الكمـال بالصـوت والمعنـى بهـذه الحروف الثمانية والعشرين التي نمت بها لغته، متجاوزة بها في العدد والأداء والمعنـى والدلالـة عـدد الحـروف المنطوقـة في جميـع اللغـات الأخـرى، وعلـى رأسـها اللغـات الأجنبيـة الغروية الالتصـاقية، الـتي لا يـزال يلحـق بهـا التبـدل جيلًا بعد جيل، تاركـة وراءهـا علـى الطريق مهلهلات كلماتهـا المنقرضـة، ومنتهيـة إلى أبنائهـا بلهجات غرويـة طفيليـة جديـدة تباعـد بـين النـاطقين بهـا وبين لغات آبائهم البائدة..

لقد نطق الإنسان العربي في باديته بحروف: الجيم، والحـاء، والخـاء، والـذال، والضـاد، والطـاء، والظـاء، والعـين، والقـاف، وهـي الحـروف الـتي اتسعت بها مدركـات اللغة العربية فوق أية رؤيـة عقليـة لأيـة لغـة أخـرى. وقـد ظل هذا التمام للنطق بهذه الحـروف، والكمـال في بيـان اللغـة العربيـة بهـا، أمانة في حياة الأمة العربية تتوارثها وتحملها أجيالها جيلًا بعد جيل، حتـى لا تتعـرض لأيـة عوامـل قسـرية لإرادتهـا وحركتهـا، تـؤدي إلى تآكـل هـذه الحروف النـاصعة في قيثارة لسـانها، بمـا ينتهـي بهـا إلى مـا انتهـى كـثيرًا في مراحـل القهـر السياسـي والتخلـف الحضـاري إلى هـذه اللـهجات العاميـة

المريضة، القاصرة في أدائهما، وشتات معانيها، وأفول نجومها، عن ملاحقة آمال ومطالب وغايات الناطقين بها..

إن الاحتفاظ بحيوية الأحرف العربية في اللسان العربي يرتبط كما أكدت مراحل الإفصاح في حياة الشعوب والأجيال العربية بهذا المستوى الحتمي من الحرية، وحياة الحركة والتفكر في السموات والأرض، دعمًا وتنمية للإيمان، وملاحظة واستزادة من العلم، وهي الحياة السوية التي تحفظ على الإنسان المؤمن الراشد يقينه الديني، وأمنه النفسي، مع سلامة عقله، وصحة بدنه، التي يرتبط بها في هذه الحياة السوية الصحيحة صحة وقوة حلقه، وسلامة وصحة مخارج الحروف التامة في فمه ولسانه.

إنه بهذه الحياة الصحية السوية، دينًا وعلمًا، وحركة وسعيًا، وتفكرًا وعقلًا، يتجنب خطر التدهور في مقومات وجوده الأساسي باللغة المبينة، إنه يتجنب ويتحصن ضد جميع هذه المخاطر التي أشار إليها علماء الصوتيات اللغوية Phonetique، والتي يذكر منها عالم اللغة على عبد الواحد وافي في كتابه «علم اللغة» العوامل الآتية التي تتدهور بها اللغات إلى لهجات:

1- التطور المطرد لأعضاء النطق في تكوينها واستعدادها.

2- اختلاف أعضاء النطق في تكوينها واستعدادها باختلاف الشعوب.

3- الأخطاء السمعية.

4- تفاعل أصوات الكلمة بعضها في بعض.

5- تناوب الأصوات – أي الحروف – وحلول بعضها محل بعض.

6- أثر العوامل النفسية، والاجتماعية، والجغرافية.

7- أثر العوامل الثقافية.

آيات الحروف:

إن الجهاز الصوتي للإنسان العربي قد استوفى مراحل نشأته وتطوره ونموه، وفقًا لقوانين اللغة والبيئة، حتى بلغ درجة التمام لحروف لغته، وغاية الكمال في الاتساق الصوتي لهذه اللغة، باتجاه وعي الدنيوي والأخروي في هذه الحياة، وتنمية العلم والإيمان للمزيد في طاعة الله..

ولئن كان الأوربيون في دراستهم المتنوعة للعلوم الصوتية لم يتوصلوا – وهم تحت المستوى الجغرافي والبيئي والإنساني الملائم – إلى حقائق حية، أو علم نافع، سواء في دراسة لغاتهم أو لغات غيرهم، فإنهم لا يزالون يأملون – وبخاصة مع احتمال توسع دراسات علماء منهم أقروا مثل العالم الفرنسي إرنست رينان بكمال الإسلام وكمال اللغة العربية الناطقة عنه وبه.

وفي مثل هذا الأمل قد يشطح بعضهم بالأحلام عن المستقبل كما يشطح أحد أساتذة علم النفس الإنجليز «سيرل بيرت» في كتاب مشترك بينه وبين زملائه له بعنوان «كيف يعمل العقل» والذي يقول فيه:

«إن الأخصائي في علم الأصوات ومخارج الحروف ليستطيع أن يسجل بالرموز خصائص اللهجات المختلفة وصفاتها، وقد يخترع علماء النفس يومًا من الأيام وسيلة يستطيعون بها أن يسجلوا ما بالكلام من زون.. وموسيقى»!

على أن القرآن الكريم، في قمة الكمال الذي بلغ به كلام الله ببيان اللغة العربية، قد فتح منذ أربعة عشر قرنًا هجريًا هذا الباب واسعًا عن علوم اللغة العربية، وعلوم أصواتها، وما يكمن فيها وفي أحرفها من مثال حي على حركة سنن الله باتساع آفاقها، داخل هذه الذبذبات

الصوتية القصيرة الأمد، والمتعددة القدرات والقابليات، لهذه الأحرف التي أقسم بها سبحانه في أوائل بعض السور، والتي لا يزال العقل الأعجمي الذي يسيطر على تفاسير بعض علماء المسلمين في عصور التخلف – بعد عصر النبي وعصر الصحابة – عاجزًا عن تدبر ما وراء هذه الأحرف في أوائل بعض السور، وحتى ليتحول عجزهم أحيانًا إلى وهم وخرافة، أو فتنة وتضليل..

وفيما يلي نقدم بإيجاز، واستنادًا إلى ركائز ومقومات التدبر السليم لكتاب الله، ولغة العرب المبينة التي نزل بها هذا الكتاب، لنفتح باب «علم أصوات اللغة» على مصراعيه أمام من يستمعون القول من العلماء فيتبعون أحسنه وأصدقه، متحققين من أن بدايات هذا العلم المنبثق من آيات الحروف كانت واضحة كل الوضوح على عهد الرسول الكريم وصحابته المؤمنين، وما هدانا الله إليه اليوم إنما هو أن نستعيد تصور ما كان المسلمون الأوائل على علم به بأسبابه التي لا تزال قائمة، ومن مصادره التي لا تزال حية.

أنواع الاستهلا:

تبدأ بعض السور في القرآن الكريم بحروف مفردة، أو بحرفين أو أكثر إلى خمسة حروف. ويبلغ عدد هذه الحروف أربعة عشر حرفًا وهي: ا – ح – ر – س – ص – ط – ع – ق – ك – ل – م – ن – هـ – ي. ولما كانت حروف اللغة العربية ثمانية وعشرين حرفًا فتكون هذه الحروف بالضبط نصف حروف اللغة، كما أنها مع النصف الآخر زوجية وليست فردية.

هذه الحروف تقع في استهلال 26 سورة مكية، وثلاث سور مدنية فقط هي البقرة وآل عمران والرعد. كما نلاحظ أن هذه الحروف لا تظهر

في مجموعة السور الأولى من القرآن ولا في مجموعة السور الأخيرة منه. إنها لا تظهر إلا بعد السورة الثانية والثلاثين بترتيب النزول ما عدا سورة القلم، وكذلك تخلو منها الست عشرة سورة مدنية الأخيرة في نزول القرآن الكريم.

بعد هذه المقدمة نستطيع ببعض التدبر في كتاب الله أن نتبين أن السور التي تستهل بهذه الحروف تجيء متجمعة في مرحلة ثالثة بين أربع مراحل اتجه إليها شكل الاستهلال في السور المكية والمدنية على النحو التالي:

أولًا – الاستهلال بتوجيه الخطاب إلى الرسول في السور الأولى من القرآن، وذلك لتأييده، وشد أزره في مثل قوله تعالى:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ و﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ و﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾و﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ والتي فيها قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴾.

ثانيًا – الاستهلال بالقسم بآيات الله المرئية والمتعاقبة في ملكوت السموات والأرض، وذلك لتنبيه أسماع المدعوين إلى الداعي والدعوة، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ و﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ و﴿ وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ و﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ و﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ و﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ و ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾

ثالثًا – الاستهلال بهذه الحروف الأربعة عشر التي يرد بعدها دائمًا ذكر كتاب الله مثل:

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ و﴿يسٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ و﴿طه مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾

رابعًا –المرحلة الرابعة بعد ذلك وهي الختامية، وتبدأ في استهلالها بالأمر المراد من السورة وذلك في مثل قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ وفي سورة المنافقون ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ﴾، وفي سورة محمد: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ وكذلك قوله في سورة الحجرات وهي مدنية وقد جمعت الكثير من أدب الإسلام للمسلمين، وهي تبدأ مباشرة بوصايا الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ وقوله تعالى في سورة النساء وفيها ما فرضه الله في شريعته من العدل والتكامل بين الرجال والنساء وبخاصة في المواريث التي كان يأكلها أكثر الرجال في الجاهلية، متناسين حقوق القربى والأرحام ووشائحها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾

آيات القسم:

يتبين من ذلك أن الحروف التي جاءت فواتح لبعض سور القرآن الكريم ليست في المراحل التي سار عليها نهج الدعوة بالقرآن المبين إلا نوعًا من القسم يأتي بترتيبه في مدارج الدعوة ومراحلها، ليعلن عن هذا القسم الفريد في تاريخ الدعوات الدينية السابقة، والقسم العظيم بآية الله

الكبرى في هذه الحروف نفسها التي يقوم عليها، وعلى ما فيها من وحي الله بكماله، ومن سننه بقدراتها وقابلياتها، خلود دعوة الله إلى الإسلام في القرآن الكريم، وحجة الله بهذه اللغة المبينة بأصواتها، والمشرقة الآيات في حروفها، على من اجتباهم لدينه، وتدبر كتابه، وحمل رسالته، من هؤلاء العرب من قوم النبي –صلى الله عليه وسلم – ومن أبناء إسماعيل بن إبراهيم، الذين جعلهم بتمام نعمته عليه بهذه اللغة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾..

وكما أوضحنا فإن هذا القسم بآية عقلية وقلبية، هي هذه الأحرف العربية الظاهرة بوصفها أصوات وعناصر بناء هذا الملكوت المسموع والمعقول، قد جاء بترتيبه بعد القسم بآيات الله الحسية المشهودة في الكون من الليل والنهار، والشمس والقمر، والظلمة والنور، والحياة والموت، والتي هي لبنات وعناصر الملكوت المرئي والحسي..

لقد كان القسم بهذه الأحرف جديرًا بأن يثير اهتمام الأمة التي اجتباها الله فأنزل القرآن بلسانها العربي المبين، وهي الأمة التي ميزت نفسها عن غيرها من الأمم بكلمة واحدة تدل بها على التزامها ببلوغ ذروة البيان والهداية وهي «عرب» في مقابل كلمة أخرى تدل بها على عموم من لا يبينون، ونتيجة لذلك فهم لا يهتدون، وهي «عجم»..

وهكذا كان القسم بهذه الأحرف الحية دلالة فريدة على هذه النعمة الكبرى التي اصطفى الله بها العرب لدينه، وفتح بآياتها هذا الطريق الواسع للهدى إليه، والعزة به، عابرين على جسرها الأمين ما بين عالمهم المحدود وملكوت السموات والأرض، باذلين بالرضا كل الجهد والجهاد ليسمعوا بأصواتهم.. في حين يسيرون قدمًا بين آيات الله – هذا

البرهان الذي يوقظ فطرتهم، ويهز بالوعي قلوبهم وعقولهم، ويذكرهم في مواجهة هذه النعمة التي أعدهم الله لها، ورفع قدرهم إليها، بواجب الشكر لله المنعم وليس الجحود، وحق الطاعة وليس العصيان، وتنمية الإيمان به وليس الفتور والنسيان.

من أجل هذا – كما كرنا – فقد أتبع الله الاستهلال لبعض السور بهذه الأحرف بكر القرآن الذي هو آية الله الكبرى بين جميع آياته من خلق الأرض ومن عليها، وذلك لينبه السامع المتدبر إلى أن هذا القرآن العظيم، والحكيم، والمنير، هو الصرح الخالد من الآيات المحكمات، المشرقة كلها من ثنايا هذه الحروف الحية المسبحة كما أوحى بقدراتها وقابليتها في بناء اللغة العربية المبينة. وذلك في مثل قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ وفي سورة الشورى: ﴿حمٓ عٓسٓقٓ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾.

أي بهذه الأحرف العربية ينزل القرآن إليك وحيًا كما أوحى الله بالتوراة والإنجيل لمن قبلك.

أربعة عشر حرفًا:

والآن قد يسأل سائل: لماذا اختار الله أربعة عشر حرفًا ليقسم بها من حروف اللغة العربية دون الحروف الأربعة عشر الأخرى؟.. والجواب: أن القسم بنصف حروف هذه اللغة هو في حد ذاته إشارة إلى أهمية النصف الآخر المتفاعل معه داخل كيانها اللغوي الواحد. وإذا كان بعض المفسرين قد سمى هذه الحروف في أوائل السور بالحروف النورانية، وسمى الأخرى بالحروف الظلمانية، مضيفين إلى ذلك كثيرًا من التهاويل والأعاجيب بعيدًا عن هدى القرآن الكريم، فالحق أن الأمثل في جانب هذه الحروف

الفعالـة والشـديدة السـطوع في آيات القـرآن وكلماتـه أن تسـمى بـالحروف الشمسية التي تشع من ذاتها ، في مقابل الحروف القمرية التي لا تعكس وهي تنير إلا إشعاع هذه الحروف الشمسية عندما تختلط بها. ومثل هذه التسمية تتعادل مع كلمتي «الإيجابي والسلبي» في مجال الكهرباء، و«الحمضي والقلوي» في مجال الكيمياء، أو «المذكر والمؤنث» في المجال الحيوي للاتحاد والاشتقاق والتوالد بين الأحياء.

وإذن فقد أقسم الله تعالى بالحروف ذات التأثير المباشر على الحروف الأخرى المقابلة لها، هذا التأثير الذي له وقعه على الأسماع والعقول، من حيث القدرة على استقبال وتدبر هذا التركيب الصوتي الملهم، الذي تنشط به في الاتجاه الصحيح مشاعر الإنسان السوي وأفكاره، وتتداعى معه الصور والمعاني إلى عقله، وتتحدد الطرق والغايات أمام إرادته..

وتشهد السور التي استهلت بهذه الحروف الأربعة عشر على صحة هذا الفهم لطبيعتها في بناء آيات القرآن الكريم، كما شاء الله الموحى به وبها، وذلك حيث يتاح لكل من يفتح المصحف، ويتدبر هذه الآيات في السور المستهلة بهذه الحروف، أن يتحقق من أن الكلمات ذات الفعالية القصوى حول موضوع السورة، والمعنى المحكم والمراد من الآية، إنما تشتمل على واحد من هذه «الأحرف» التي استهلت بها السورة في موضع القسم.

وفيما يلي نقدم أمثلة قليلة على صحة ما أوضحناه، مع التأكيد بأن هذه الأمثلة شاملة لهذه القاعدة الخاصة بدلالة هذه الأحرف موضع القسم، وبدن استثناء، والقرآن الكريم مفتوح لتدبر الجميع.

من سورة القلم التي تبدأ بحرف نون نسجل بعض الآيات التي وردت بها هذه الكلمات التي يبرز ويضيء بمعناها حرف نون، بحيث يبدو أنه من الحروف الأساسية في موضوع السورة، والأكثر عددًا:

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾....

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾... وكذلك تمضي الآيات في هذه السورة وهي تحمل في أكثر كلماتها الفعالة حرف النون كما في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ﴾... وهكذا إلى آخر السورة.

ومن سورة يس التي تبدأ بالحرفين «ياء، وسين» نسجل بعض الآيات التي يبرز ويتكرر في الكلمات الظاهرة بالمعنى العام المراد منها حرفا «الياء، والسين» سواء أكانا معًا في كلمة واحدة، أم كان كل منهما في كلمة مستقلة.. يقول الله تعالى:

﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.. ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.. ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

ومن سورة مريم التي تبدأ بخمسة أحرف هي الكاف والهاء والياء العين والصاد نسوق هذه الأمثلة من الآيات التي تبرز بها الكلمات المشعة بالمعنى المراد والموضوع العام لهذه السورة متتابعة بهذه الأحرف. يقول تعالى:

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ فمن الآيات التي تظهر فيها فاعلية حرف الياء وإشعاعاته نلاحظ كما هو ظاهر أن أكثر النهايات الإيقاعية للآيات في هذه السورة يعتمد على هذا الحرف في مثل قوله تعالى: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾ وقوله: ﴿ وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴾ وقوله: ﴿ قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴾ وقوله: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴾ ونعود إلى ترتيب هذه الأحرف في قسم الله بها فنذكر من الآيات التي تظهر فيها الكاف بقوة إشعاعها في المعاني المتعلقة بموضوع السورة قوله تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ﴾ وقوله: ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ وقوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾ وقوله: ﴿ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴾ وقوله: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

وأما الهاء فمن الآيات التي تظهر فيها الكلمات المؤثرة بها قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ ﴾ وقوله: ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴾ وقوله: ﴿ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾ وقوله: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ وقوله: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ وقوله: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ .. ﴾ وقوله: ﴿ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآ ﴾.

وأما حرف العين فنذكر من أماكنه في الكلمات المؤثرة بهذه السورة قوله تعالى: ﴿ وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ وقوله: ﴿ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ﴾ وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴾ وقوله: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ وقوله: ﴿ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ

أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ وقولـه: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ وقولـه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾.

وأما الصاد فنذكر من الآيات التي وردت مؤثرة في كلماتها بهذه السورة قوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ وقوله: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ وقوله: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ وقوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ ﴾.

هذه الأمثلة التي أوردناها عن كل حرف من هذه الأحرف الخمسة التي أقسم الله بها في مستهل سورة مريم، والتي تعدد بها كما هو ظاهر تجاور هذه الأحرف مثنى وثلاث في هذه الآيات التي تمثلنا بها – تؤكد أن هذه الكلمات وأخواتها مما ظهرت بها إشعاعات حروف القسم في سورها، هي في بناء القرآن الكريم بوحي الله دلالات وآيات متتابعة على ما خص الله به اللسان العربي المبين في أحرفه التي أقسم بها، والأحرف الأخرى المقابلة لها، والمتفاعلة معها، من كمال المعنى وجلال الإيقاع، ومن دقة النظم وقوة الإشعاع، تجاه كل من يسمعون إلى كتاب الله – إلى اليوم – بقلوبهم، ومن يتدبرونه بعقولهم، من المؤمنين الصادقين، والمسلمين العاملين.

ومما نلاحظ أخيرًا أن عددًا من هذه الكلمات في أمثال هذه السور التي استهلها الله بالقسم بهذه الأحرف، لا يرد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، أو مرتين، أو مرات قليلة، ومن أمثال ذلك في سورة مريم وحدها

كلمات «سريا، صليا، سميا، صبيًا، صريم، مفتون، زنيم، هين، هزي، جذع».

السبع المثاني:

وبعد.. فإن سؤالًا أخيرًا سيظل يتردد في خواطر بعض القراء حتى نجيبهم عليه. أما السؤال فهو: هل هناك دليل من القرآن على أن الله قد أقسم في مستهل هذه السور بهذه الأحرف الأربعة عشر؟

وللجواب نبدأ بهذه الآية الكريمة من سورة الزمر المكية، والتي يقول فيها تعالى من صفة القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾.

فالله تعالى في وصف القرآن يقول إن بناءه الجامع لأحسن الحديث، وأعظم الغايات، قائم على حروف متشابهة في أنحائه، ولكنها في مضيها به بالتنزيل: مثنى.. مثنى.. أي: أزواجًا أزواجًا، من الحروف العربية المبينة والكاملة، والمتقابلة بالتآلف الزوجي فيما بينها والمتفاعلة، إنما تحشد من قوة التأثير على أسماع المتدبرين وعقولهم، ما تسري به وعدة التأثر الصادق في جلود الذين يستمعون إليه، ممن يخشون الله، ومن ثم تلين جلودهم وقلوبهم خشوعًا ورغبًا إلى الله...

فالمثاني على غير ما اختلط أمرها على أكثر المفسرين إنما هي الأحرف التي تمضي بها مقاطع القرآن ومفاصله وآياته متزاوجة مثنى مثنى، أو اثنين اثنين، سواء من الأحرف التي أقسم الله بها، أو منها ومن الأحرف الأخرى معًا، بما يتجلى به في أعظم نعمة أنعمها الله على الإنسان بهذا القرآن الحكيم كيف أقام الله لمن اجتباهم لهذا الكتاب، ولهذه الأمانة، هذه الآية الكبرى التي تذكرهم إذا غفلوا، وتصدعهم إذا

كذبوا، وتحيى قلوبهم إذا استكانوا — من أحرف متشابهة مع التكامل في أصوات مفرداتها: ألف باء تاء ثاء جيم حاء.. إلى آخرها في حرف الياء. فإذا ما دخلت هذه الحروف المفردة في تركيب الكلمات: مثنى مثنى، وأزواجًا أزواجًا، في تباديل وتوافيق بغير حد، تفجرت من منابعها، ووحي الله في قدراتها وقابلياتها، بما لا تنفد آياته من الصور، والمعاني، والأفكار، التي تستقيم بها مدركات العقول والألباب، سواء في طرقها المفتوحة، أو غاياتها السوية.

هذا.. بينما يغفل الغافلون عن قدر هذه الأحرف المنطوية على عالمها الحي والنشط، كعالم الذرة الواسع برغم دقتها، والمشرقة بمكنونها من عجائب هذا العالم الحي المسبح كلما وضعت في موضعها الصحيح، من قلب وعقل ولسان الإنسان العربي، المستبين، المؤمن. إنهم في مراحل تخلف الشعوب العربية، بالغزو أو بالتفرق، يمرون عليها مرور الغافلين، فلا يدركون قدر ما أنعم الله عليهم بها، وما ميزهم ببيانها ولسانها، ليحملوا رسالتها أقوياء رحماء أشداء، وليؤدوا الأمانة عنها صادقين أوفياء علماء.

إنهم عندئذ وهم يتدبرون كتاب الله سيستوعبون معنى قوله تعالى في سورة الحجر في فضل هذه الأحرف التي قام عليها اللسان العربي، ونزل بها القرآن الكريم مجتمعة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾.

أي لقد أنزلنا إليك بالأحرف الأربعة عشر التي أقسم الله بها في استهلال عدد من السور.. هذا القرآن العظيم، الذي جمع الله في تنزيله وتفصيله محكم معاني هذه الأحرف، والأحرف المتقابلة والمتفاعلة معها، ليمضي هذا الكتاب المنير ببيانه الخالد، ولسانه المبين، ليكون مثار هزة الخاشع عن غفلته، ودمعة المؤمن بإنابته، وحجة المسلم في جهاده وصحوته.. فكيف.. كيف لا يقسم الله بهذه الأحرف قسمه بالسبع المثاني والقرآن العظيم.. كما أقسم سبحانه قبل ذلك بالضحى والليل.. والشمس والقمر؟!

الفصل الخامس

شهادة القرآن بكمال اللغة العربية

باتساع دلالتها العلمية على الدنيوي والأخروي

العلم والإيمان:

بهذه اللغة المبينة ذات الحروف الحية بتمامها، والمشرقة في إيقاعها، اجتمعت لمعنى العلم في القرآن الكريم دلالته العامة على علم الدين وعلى علم الدنيا معًا. هذا إلى إشارته الدائمة إلى مصدر هذا العلم في السموات والأرض، حيث تتكشف للإنسان السوي من خلال سيره الدائب بين آفاقهما المضيئة، يتفكر في خلق الله ويتدبر ويؤمن، مستزيدًا ببرهان كل نهار وليل، وهو يتتبع قوانين حركة الأشياء في حين هي تتغير باتساق ودون تفاوت حتى لا تتغير – من هذا العلم الدنيوي، الذي يستزيد به في نفس الوقت من علمه الديني، بادئًا ومنتهيًا بهما إلى الله الحق، الذي اجتباه وهداه بالعقل المؤمن، واللسان المبين.

لقد كان مصدر النعم كلها من الله إلى هذا الإنسان الفطري السوي سيره الدائب في بدائه المضيء، ليتفكر في خلق السموات والأرض، وفي اختلاف النهار والليل، والحياة والموت، والهدى والضلال، ولكي يتلقى بهذا السير المرهف الحس، والبعيد الرؤية، والمبين التعبير، والذي أوحى الله به في فطرته وإرادته وحركة حياته – هذا العلم الشامل للدنيوي والأخروي في تدبره.. العلم الذي استخلفه الله به طوال مراحل التاريخ الديني، وجعله بأمانته أهلًا لحمل رسالة الدين أسوة ورحمة للعالمين، وذلك حيث يقول تعالى من هذا الأمر الدائم في تراث وحياة الشعوب العربية، وحيًا إليها في رسالات الدين، وحتى الرسالة الخاتمة بنزول القرآن الكريم: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾.

وحيث يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾.

بهذه الآية المطاعة من أمر الله بهذا السير الدائب المتفكر في خلق الله تفجر العلم الدنيوي الذي اتحد بغايات العلم الديني في نداء القرآن الكريم من قلب الجزيرة العربية، التي كانت ولا تزال قلب العالم القديم والحديث.. هذا العلم الذي جعل علم قوانين الخلق أو الطبيعة طريقًا إلى الإيمان، وجعل الإيمان شرطًا لتسخير واستثمار علوم الطبيعة في بناء مجتمعات الحق والسواسية والعدل والسلام، ولم يفصل أحد العلمين عن الآخر، بل جعل أحدهما دليلًا على الآخر، ومكملًا له، وشرطًا لصحته، وأساسًا لحياة الإنسان السوية اليقينية، التي تجمع بين «الدنيوي والأخروي» في سعيه الصادق الآمن والحثيث إلى الله، في هذه الحياة.. ونحو ما هو أفضل بعد هذه الحياة بمشيئة الله.

العلم بغير إيمان:

واليوم.. والمسلمون جميعًا يواجهون في صحوتهم بهذا العصر تجربة غير مسبوقة بهذا التعقيد، والعتام، والركض المحموم بالشعور وغير الشعور نحو المجهول، داخل هذه الزحمة المتكاثرة للبشر، وتحت إرهاب وصواعق الصراعات المذهبية الإلحادية واللادينية الشرسة، في مثل هذه «الحضارة العلمية الدنيوية» المارِدة بأدواتها الضخمة والدقيقة، والسريعة الاندفاع بنزواتها وغبائها نحو الفناء.. اليوم.. أصبح المؤمنون بالله – عربًا وغير عرب – يواجهون التحدي المباشر لما يمكن أن نسميه «عقيدة العلم».. أو الإيمان دون الله بدين العلم.. أي الدين الذي لا آخرة له إلا التسلط بأكاذيب القوة، والصراع على سيادة العالم، وسرقة موارده. وإبادة شعوبه، من أجل الشذوذ والمتاع، وامتصاص الموارد المسروقة حتى آخر لحظة في جنة الدنيا..!

والأوربيون أنفسهم ظهر منهم أخيرًا من يرى رأي المسلمين في مصير هذه الحضارة الدنيوية المتجبرة بأدواتها، والتي تدفع بالعلم ليأثم، لا ليحسن بحركته بين الناس، طائشًا بغير إيمان، ومروعًا بغير آخرة. لقد ظهر منهم من رفعوا أصواتهم الجازعة بالتحذير مما سيجره على الإنسان علم جامح بغير قيادة. وهي أصوات ارتفعت خافتة منذ القرن التاسع عشر ثم أخذت تتعالى حتى اليوم، متصاعدة بقدر ما أخذ الإنسان الأوربي والأمريكي يشعر – كما يقول المؤرخ الأمريكي جفري براون «بأن العلم قد بدأ يقذف بالإنسانية في منحدر وعر لا يعرف مداه..».

وجاءت نظرية النسبية بعد ذلك كما صاغها اليهودي أينشتين لتضع الأوروبيين الذين آمنوا بدين العلم، وربطوا مستقبلهم ومصيرهم على هذه الأرض بإله واحد هو «العلم» وملكوت واحد هو الصناعة والتقنية – أمام طريق مسدود، وذلك عندما أراد أن ينقلهم إلى اليقين بأن «الشيء المحس، الذي تراه العين، وتلمسه اليد، مثل المنضدة في غرفة مثلًا، أو القمر في السماء، إنما هو وهم غليظ»!! وفي كتاب «ألف باء النسبية» الذي وضعه العالم الرياضي الإنجليزي برنراند رسل، الشهير وتشاؤمه وقلقه يحاول أن ينفض ذعره وقلقه على المعاصرين له وهو يؤكد لهم في شرح الألغوزة النسبية الصهيونية لأينشتين أن «عناصر الوجود المحسة، وقوانين الطبيعة العلمية، هي في حالة «روغان» مستمر أمام الحواس، بحيث يتلاشى إمكان وجود حكم قطعي بالنسبة لحركة الأشياء، والقوانين التي تتحرك بها الأشياء، بل ووجود هذه الأشياء نفسها، مثل وجود المنضدة التي تلمسها، أو القمر الذي تنظر إليه، فكل يخضع لأنماط متغيرة، وأساليب متقلبة»!!!

على هذا «الروغان» الذي وضع فيه أينشتين وتلامذته ومعاصروه عالمهم الحائر بالعلم في فتنة الشك في صحة وجود أي شيء، حتى ما تلمسه بيدك، وفي صحة أي قانون علمي تبعًا لذلك، نشط عدد من الأوربيين بعد إفاقتهم من صدمة هذه «الشعوذة» الحالمة بهدم كل شيء حتى سنن الله في الخلق كما يكشف عنها العالم – لكي يثيروا الأمل مرة أخرى في إمكان العودة إلى الدين.. وغلى محاولة تطويع وترويض هذا العلم بالإيمان. نذكر من هؤلاء العالم الألماني باسبرز الذي أخذ يحتج في كتبه على صانعي البيئة الإلحادية المتمردة على الدين في الحضارة المعاصرة، وحيث أصبح الإنسان في جوف خرافة «التقدم العلمي» بغير أمان، وفي غيبوبته بعقده النفسية، وبضوضاء وسرعة الحياة الآلية الوحشية، يتصور أنه هو «الله» في نظر نفسه.. !

يقول ياسبرز في كتابه «العقل والوجود»:

«إنه في عالم محروم من الله ظهر كارل ماركس نبيًا، واتخذ القوالب التي يستطيع هذا العالم أن يقتنع بها، أو أن يهلل لها، ونصب كارل ماركس نفسه مبشرًا بعلم ليس هو بالعلم، وحاكمًا بأمره لا يتكلم باسم الله!».

ويقول ياسبرز في كتابه الآخر «مستقبل الإنسانية» من كلام تشهد على صحته أحداث هذه الأيام، وذلك حيث يجدد تحذيره للعالم من علم بغير إيمان:

«إن مجرى التاريخ جعلنا نحن الأوربيين ننتقل من عصر اتسم برضا سكان المدن والتقدم والثقافة إلى عصر حروب جديدة، وقتل جماعي، بينما تقوم جماهير جديدة وباستمرار لتعيش عصر تهديد مفزع؛ حيث

يخمد كل معنى من معاني الإنساني في دوامة هدامة، وحيث يبدو الاضحلال وقد جر معه الأشياء جميعًا»!!

الدنيوي والأخروي:

ومن هنا نعود مرة أخرى إلى غايتنا من الاستشهاد بالقرآن الكريم على ما اجتمع للعلم في لغته العربية المبينة من دلالته المتكاملة على الدنيوي والأخروي، بهذا التوحد الذي عاش به الإنسان العربي المؤمن، وأشرقت به الحضارة العربية الإسلامية، يعبران عبر العصور وملء آفاق الأرض عما اجتباهما الله به وله من نعمته الكبرى بالعلم والإيمان.

في هذه الحياة السوية والرضية بوحدة العلم والإيمان، ووحدة العمل والغاية، لم يكن هذا العلم الموحد والمتكامل في حياة الشعوب العربية المؤمنة «علمًا سريًا» خاصًا تعيش برموزه وألغازه طبقة غامضة شرهة ومستعلية من الفلاسفة والكهان.. ولم يكن كذلك – ولن يكون حكرًا على المترفين في القصور.. أو المتعاملين في المدن.. إنه علم متحرر المصادر من أي سلطة، لأن مصادرة الغنية بغير حصر هي ملكوت السموات والأرض، المتاح بالنظر إليه أو تفكير فيه للجميع..

إن هذا العلم المتكامل بدلالته عن الدنيوي والأخروي هو في القرآن الكريم وبشهادته علم الإنسان السوي الفطرة، اليقظ الحواس، المبين اللسان.. إنه في العلم لكل من يهتدي إليه في آيات الكون المرسلة، ومن يهتدي به في آيات الكتاب المرتلة، مشرقًا في وعي الإنسان وعقله وقلبه، لكي يمتد به في سعيه وعمله وجهاده، عابرًا به إلى حياته الأخرى – حيث ينحل متصل الزمان والمكان – إلى حياة آمنة خالدة بغير خوف أو صراع، في ظل ظليل، وأمن أمين، وعز عزيز.. ورضوان الله أكبر..

في هذا العلم الذي ينفع الله به أهل الفطرة السوية، واللغة المبينة، تظهر حكمة الله في خلق الأشياء، كما أوحى الله بها في مفهوم العلم الواسع في القرآن الكريم، ذات دلالتين واضحتين متكاملتين:

الدلالة الأولى – يظهر بها العلم مرتبطاً بالإنسان على أساس ما يصلحه في سعيه القريب في دنياه، وحيث تظهر الأشياء لحواسه في صورة من «القوانين العرضية» التي تحفزه على الإحساس بأن كل الأشياء مسخرة برحمة الله له، ولتكون هذه الأشياء في أقرب وأفضل الأحوال الملائمة لأول مراحله نحو العلم عونًا له على صحة ابتلائه في دنياه بتدبره واختياره وعمله..

وأما الدلالة الأخرى فتتجرد بها الحقيقة العلمية من ظروف وأعراض حياة هذه الإنسان، المستقر بحركته على الأرض، لتسفر هذه الحقيقة عن علم أكثر شمولًا في نسبية ما يراه في الواقع من حركة هذا الخلق الواسع في ملكوت السموات والأرض، ومن دلالة هذا العلم الأشمل على ما أراده الله من حكمته في خلقه، وعلى ما أودعه الله في هذا الخلق من سنن ومتغيرات الانطلاق على غايته.. ومعه الإنسان.

إن العلم بهاتين الدلالتين كما أوضحهما القرآن الكريم شرط وعلامة على صحة تدبر آياته، ووعى حكمة الله به، الأمر الذي لا يتوافر لغير المعربين بلغتهم وعقولهم، والمبينين ببيانهم وإيمانهم. ومن أجل ذلك فقد كانت «الشهاب» المدعاة في كتب بعض المستشرقين على تناقض القرآن الكريم مع العلم الحديث في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا﴾ هي من حصاد العجمة في الألسنة والعقول، هذه العجمة التي تقف حائلًا بينهم، مع تعدد وجوهها وأبعادها، وبين الواعي المستنير لحكمة الله البالغة علمًا وخلقًا وأمنًا وهدى في كتاب الله المبين..

الدائم والزائل:

حول «بسط الأرض» في بعض آيات القرآن الكريم مع أنها «كروية» كما أثبت العلم الحديث بكل وسائل الإثبات تظهر هذه «الثغرة» الوهمية أمام قصار النظر ليحاولوا التشكيك في الركائز العلمية للقرآن الذي هو وحي الله مبدع الخلق، ومبدع سننه وقوانينه. هذا التشكيك الذي أصبح السلوى الخائبة لعدد كبير من تلامذة الشيوعية في بلادها، من بين العرب الذين اعتنقوها غباء وعجمة وجهلًا، ونزلوا على إرادتها وأهدافها ودعاياتها وهم يترصدون للوافدين العرب على تلك الدول الشيوعية الأوربية ليحاولوا بأرخص الوسائل، وأتفه الحجج، اجتذابهم عن الدين والإيمان إلى الشيوعية والإلحاد، والتركيز كله على ﴿ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ..﴾ في حين هي كروية.. كما يؤكد العلم!!

ولقد واجهت في بعض لقاءاتي مع هذا النوع «الجابوني» من الشيوعيين المنتمين إلى العرب في بعض الأقطار الأوربية الشيوعية التي زرتها مع وفود شعبية وعلمية – كثيرًا من العجائب المسلية، والأليمة في نفس الوقت، في المواقف الدعائية الحماسية لهؤلاء القردة المهاجمين بتوقح لكمال القرآن العلمي، ثم في المهانة العقلية، وجفاف الريق، وزيغ الأبصار، التي كانوا يرتدون ويتهاوون إليها سراعًا بعد قليل من الجدل العلمي بالقرآن وآياته، مما لم يكونوا يحسبون له أي حساب..

لقد سبق القرآن الكريم بأكثر من أربعة عشر قرنًا هذه الإشارات العجماء والقاصرة بروغانها في نظرية النسبية.. هذه الإشارات إلى «القوانين العرضية» باتجاه التنبيه إلى القوانين العلمية الأكثر ثباتًا، وذلك لحفظ توازن الإنسان بين ما هو ضروري لحياته اليومية، وإن لم يكن دقيقًا تمامًا

من الناحية العلمية، وبين ما يفتح الطريق أمامه إلى علوم أكثر ثباتًا وأطول مدى..

إن القرآن الكريم قد سبق بأكثر من أربعة عشر قرنًا فجمع بين طرفي هذه الحقيقة العلمية الكبرى فيما تدل عليه بلغته المبنية، وبيانه الخالد، بين الدنيوي والأخروي... بين البشري والإلهي... بين الزائل والدائم.. في حياة هذا الإنسان في كل زمان ومكان، وحتى يعبر مرحلة الزمان والمكان..

وهكذا.. بهاتين الدلالتين معًا تكلم القرآن الكريم إلى هذا الإنسان العربي المستبين – فيما تكلم إليه عنه آياته التي سخرها بحكمته له، عن آية منها في هذه الأرض التي يعيش حياة ابتلائه العظيم عليها.. الأرض التي يراها في رحمة الله «مبسوطة» بين يديه، في حين هي في الحقيقة العلمية الأبعد مدى من حواسه والقابلة لإدراكه بهداية عقله، وكما يعلن الله له في كثير من الآيات الأخرى – قبل العلم الحديث الذي هو أحد هبات الحضارة القرآنية لمتحضري اليوم بقرون طويلة – فأن هذه الأرض المبسوطة هي «كروية» و «دائمة الحركة» حول الشمس... وإلى غايات أبعد.. من العلم المؤمن، الذي يعبر به هذا الإنسان السوي طريقه – بعد عمارة الأرض بالعدل والرخاء والسلام – إلى حياة أبقى بعد هذه الحياة، وإلى علم أكثر في قربه الأقرب إلى الله..

في هذا العلم بدلالتيه يقول الله للمدعوين المبينين بكتابه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: 19]، ويقول سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨] ويقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعد :3].

إن صورة هذه الأرض المبسوطة والمفروشة والممتدة أمام عين الإنسان وتحت أقدامه.. هذه الأرض المستقرة بالرواسي فلا تهتز ولا تضطرب في دائرة حواس هذا الإنسان وحركته، هي حقيقة علمية أولية وضرورية من حيث إنها تحمل دلالتها في مجموع وحدة العلم على هذا المشد الزائل للأرض بالنسبة للباقي بعدها. ذلك أن هذا الإنسان كان ولا يزال برغم تقدمه العلمي، وبعد رؤيته وراء الظواهر المبسوطة أمامه – يرى نفسه بمشيئة الله ورحمته – إن كان مؤمنًا – يتحرك فوق المنبسط والممتد من هذه الأرض، التي يصحو وينام فوقها، بما يصلح قرارًا لعيشته وأمنه، وحافزًا لنشاطه وطموحه..

ثم نقول.. فإذا تصورنا ارتفاع رحمة الله عن هذا الإنسان فرأى هذه الأرض كما هي في حقيقتها الأبعد وراء حواسه «كرة» هائلة يتسلق بوهنه جوانبها، في حين هي كما يحسها تركض به مارقة كالسهم في الفضاء، وإذ يقرع أذنيه بما يروعه، وما يذهل به عنه نفسه، هذا الدوى الصاعق الذي يسقط على سمعه قادمًا إليه من هذه الانفجارات الهيدروجينية الدائمة في السمش، هذا بالإضافة إلى ما يصل إليه على كل الطرق المفتوحة على سمعه وبصره من أصوات ما يجري في باطن من هدير أبخرة نيرانها، وما يهيج على ظهرها من زئير حيواناتها، وعصف رياحها.. لو تصورنا كل ذلك يصيب الإنسان لو أنه واجه – بعيدًا عما شاءه الله من رحمته به – حياته على الأرض دون هذا التدرج بحواسه وعقله بين علمه الضروري بالزائل، وعلمه الممكن بالدائم.. علمه الذي يأتي بعد التفكر والتدبر في حماية هذا الأمن الحسي بصورة الأرض مبسوطة ومفروشة وممتدة.. لو تصورنا حقًا كل ما يمكن أن يصيب هذا الإنسان، المغترب والمنصعق أمام حقيقة علمية تسبق التمهيد والتمكين له.. فهل كان من الممكن أن يكون هذا

الإنسان «إنسانًا» يأنس لشيء، أو يفهم عن شيء.. بل هل كان في وسعه قبل كل شيء أن يحيا ساعات على هذه الأرض دون أن يتمزق رعبًا، ويتلاشى هباء.. وهو الذي «امتدت» له الحياة «مبسوطة» و «آمنة» ليعيش عليها هذه الدهور وهو ينظر ويتفكر، ويتعلم ويتطور، ماضيًا بعلمه بين الحق والباطل، والهدى والضلال، حتى يبلغ من علمه حد ألا يعلم بعد علم شيئًا..!

إنه بدلًا من هذا «المخدر» الذي يتعاطاه اليوم رائد الفضاء حتى يحتمل نقلته من الحياة داخل الغلاف الجوي للأرض إلى ما بعدها باتجاه القمر والزهرة والمريخ، فإن القرآن الكريم يقص علينا في آياته ظواهر وقوانين هذا العلم الذي هيأ الله به للإنسان هذا المناخ الملائم لتطور حياته وفكره وعقله.. مناخ «التهدئة» الذي حقق له به في واسع رحمته، وكمال حكمته، هذا «التوازن» الفريد وسط ظروفه مهما تنوعت، لكي يتحرك مفتوح العينين، مرهف السمع، يقظ الحواس والفطرة، دائب الطموح والأمل، قادرًا على التفكر والتعقل، نشطًا إلى تحقيق هذا الاتساق الملهم بينه وبين آيات الله المحيطة به، فوق أرض مطمئنة له، مبسوطة في ظاهرها أمامه، وتحت سماء مزدانة له بمصابيحها ونجومها، ليسعى في ضوئها، وليهتدي في ليله بها، وهي تطلع عليه وتغيب، دون ملل أو احتجاب، أو خطأ في الوجهة والحساب.

ومع هذا المناخ الصحي لحركة الإنسان، والمهدئ لفكره وحواسه، فوق هذا المستقر الموقوت والزائل على الأرض، فإن الله برحمته وحكمته يمنحه القدرة بهذه التهدئة لظواهر ما يراه على أن يكشف بعقله وبصيرته علمًا آخر وراء ما يجري أمام عينيه.. علمًا أشمل في دلالته، وأبعد في إشارته.. علمًا يوقظه ويذكره بهذا الأخروي وراء الغيب بعد هذا الدنيوي

ملء العين.. بهذا الخالد والدائم الذي لا يزول بعد هذا المتغير والفاني الذي سوف يزول..

يقول الله في أن الأرض كروية بعد أن استوفى الحكمة من كونها مبسوطة: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:30] أي كروها على شكل الدحية أي البيضة.

ويقول في كرويتها أيضًا: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر:5]. فلو كانت مبسوطة في حقيقتها العلمية الأبعد شوطًا عن مجال الحكم بالحواس البشرية لسقطت عليها أشعة الشمس مرة واحدة في نهار واحد سرمدي لا يتكور أبدًا.. إذن فتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل يقطع بكروية الأرض، بل وبدورانها..

ويقول سبحانه في حركة ودوران هذه الأرض الكروية: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل:15] وكيف تميد الأرض بأهلها ما لم تكن تتحرك، بل وتسرع في الحركة؟!

ويقول سبحانه في دوران الأرض في فلك مع الشمس والقمر: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس:40].

ويقول سبحانه في هذا المعنى أيضًا: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس:38].. فإذا كانت الشمس مع سبحها تجري لمستقر لها، أي إلى غاية بعيدة تستقر عندها في نهاية رحلتها بعد هذه الحياة الدنيا، فهي تجري ولاشك والقمر معها، والأرض معهما.. وإلا لانسلخ الليل من النهار، وعن النهار، ولم يعودوا يلتقيان ولا يتتابعان في يوم

الأرض هنا وهناك.. وهذا ما لم يقع بعد.. ولابد من وقوعه يومًا ما لا يزال في غيب الله، مع اليقين به عند المؤمنين والعلماء، وذلك من رحمة الله في مناخ «التهدئة» الصحي لحياة الإنسان وسعيه، ولنشاط طموحه وأمله..

هذا إذن هو العلم في القرآن الكريم كما استعنت بالدلالة على كماله ووحدة طرفيه بين الدنيوي والأخروي هذه اللغة العربية المبينة، وهي تقود عقل وقلب وإرادة هذا الإنسان العربي المؤمن والمستبين راجيًا راضيًا آمنًا إلى ما وراء هذا المشهود المحس، والظاهر الزائل، وهو يسعى سباقًا في مواكب وأجيال المؤمنين الصادقين، والعلماء الراسخين، إلى ما وعدهم الله به من حسن ثواب الآخرة، وهو سبحانه القائل عن هؤلاء المؤمنين العاملين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة:22].